كيف يخدع فرانك زانو نفسه وجمهوره حين يتحدث عن أفريقيا

Eliakim M. Kambale

FF-0002 · v1 · ar · 2026-11-18

ترجمة عن en v1

https://contributions-ledger.org/freeforms/ff-0002/v1/ar/

فرانك زانو وحجته المفضلة التي لا تستقيم

فرانك زانو معلّق أمريكي وُلد في بنين، ويقدّم محتواه على قناة Zanu Project Rethink، حيث يناقش التنمية في أفريقيا والثقافة والاستعمار وقضايا العرق. ومن الحجج التي يكررها أن يسأل ضيوفه عن مقابل كلمة «صيانة» في إحدى اللغات الأفريقية. فإذا لم يقدموا جوابًا يقبله، استنتج أن اللغة تفتقر إلى الكلمة، وأن الثقافة تفتقر بالتالي إلى المفهوم، وأن هذا الغياب يساعد على تفسير مشكلات التنمية في أفريقيا. تظهر هذه الحجة في حواره مع طالبين أفريقيين، وفي مقابلته مع نيك فريتاس. يتتبع هذا النص تلك الاستنتاجات المتعاقبة ليبيّن أين ينهار الاستدلال.

شاهد زانو يطرح حجته: 9:40–11:00

الخطأ الأول: مغالطة الاحتكام إلى الجهل

حين يسأل فرانك ضيفًا عن مقابل «صيانة» في لغته، تفصل بين الجواب والاستنتاج عدة افتراضات. أولها أن الكلمة، إن كانت موجودة، فلا بد أن يعرفها الضيف. فإن لم يعرفها، فهي غير موجودة. هنا وحده يكفي أن نتوقف لنرى الخلل. عندما يقر الضيف بأنه لا يعرف الكلمة، لا يثبت جوابه إلا أنه لا يعرفها في تلك اللحظة. ولا يثبت ما تحتويه اللغة من مفردات. هذه صورة نموذجية لمغالطة الاحتكام إلى الجهل، أو argumentum ad ignorantiam: يتحول ما يجهله شخص إلى دليل على أن شيئًا ما غير موجود.

يمكن تفسير جواب الضيف بطرق عدة. ربما لم يكن متمكنًا من لغته الأم. وربما تلقى تعليمه بلغة المستعمر وتعلّم معظم مصطلحاته التقنية بتلك اللغة. وقد يكون المصطلح من مفردات مهنة لم يمارسها قط. وربما نسيه ببساطة. سؤال زانو لا يميّز بين هذه الاحتمالات، لكنه يتعامل مع الجواب وكأنه لا يتيح إلا استنتاجًا واحدًا.

ومن الممكن أيضًا ألا يكون في اللغة، بحسب استعمالها الحالي، مقابل دقيق للكلمة. لكن مفرداتها اليوم لا تثبت، حتى في هذه الحال، أن الكلمة لم تكن موجودة من قبل. فاللغات تتغير: تنشأ كلمات، وتتبدل معاني أخرى، ويُهجر بعضها، وتُستعار ألفاظ من لغات أخرى. وقد يختفي مصطلح مع تراجع الحرفة أو النشاط الذي كان يُستعمل فيه، ولا سيما إذا انقطعت صلة نقل المعرفة بين الأجيال. لذلك، لا يمكن الاستناد إلى غياب كلمة اليوم للحكم على ما عرفه أهل اللغة في تاريخهم من دون البحث في ذلك التاريخ أولًا.

تقدّم العبودية والاستعمار تفسيرات ممكنة لمثل هذا الفقد. فالحرفي الذي يُنتزع من مجتمعه قد يرحل قبل أن ينقل مهاراته إلى غيره. والتهجير القسري قد يفصل المتدربين عن معلميهم، كما قد تقوّض التحولات الاقتصادية الاستعمارية ومنافسة المنتجات الصناعية المستوردة سبل العيش التي تقوم عليها حرفة ما. وإذا تراجعت الممارسة نفسها، فقد تقل معها فرص استعمال مصطلحاتها المتخصصة وتوريثها. وهكذا قد لا ترث الأجيال التالية المهارة ولا الكلمات المرتبطة بها، مع أن كليهما كان يومًا جزءًا من حياة مجتمعها.

وقد تزيد التحولات في التعليم هذا الانقطاع عمقًا. فالحرفة التي تُتعلّم في الأسرة أو بالتدرب عند أهلها تحتاج إلى تواصل مستمر بين المتعلم والممارس. وحيث أحلّ التعليم الاستعماري نفسه محل هذه الأساليب أو حطّ من قيمتها، قد تكون المعرفة التي تحملها فقدت طريقها إلى الجيل التالي. فالمدارس الجديدة ربما لم تعلّم الحرفة المحلية ولا مصطلحاتها. وقد تُخرّج، بدلًا من ذلك، شخصًا يناقش الموضوعات التقنية بطلاقة بلغة أوروبية، لكنه يعجز عن تسمية الأشياء نفسها بلغته. وقد تعكس هذه الصعوبة نوع التعليم الذي تلقاه وما أُتيح له أن يتعلمه.

سؤال زانو يترك كل هذا التاريخ بلا فحص. يصادف انقطاعًا محتملًا في نقل المعرفة، فيعامله بوصفه دليلًا على أنه لم يكن هناك أصلًا شيء يُنقل.

الخطأ الثاني: التسليم بالحتمية اللغوية

حتى لو سلّمنا بأن لغة ما لا تملك كلمة تقابل «صيانة»، تظل الخطوة التالية غير سليمة. يفترض زانو أن غياب الكلمة يثبت غياب المفهوم. لكن الكلمة والمفهوم ليسا شيئًا واحدًا. يمكن التعبير عن فكرة بعبارة، أو بشرح، أو بعدة مصطلحات أكثر تحديدًا. فما تجمعه الإنجليزية تحت كلمة «maintenance» قد تعبّر عنه لغة أخرى بأوصاف منفصلة لحفظ الأدوات، أو العناية بالمباني، أو إبقاء المعدات صالحة للعمل. وغياب مصطلح جامع واحد لا يثبت أن هذه الأفعال، أو الغرض منها، مجهولة.

يقوم هذا الاستنتاج على صيغة قوية من الحتمية اللغوية: أن المفردات المتاحة للناس ترسم حدود ما يستطيعون فهمه. غير أن الحوار نفسه يقدّم سببًا للتشكيك في هذا الافتراض. فعندما يقترح الضيف عبارة مثل «الاعتناء بـ»، فإنه يحاول وصف الفكرة بكلمات يعرفها بالفعل. ومن حق زانو أن يسأل إن كانت العبارة تؤدي بدقة المعنى الذي يقصده. لكن رفضها بوصفها ترجمة غير دقيقة لا يثبت أن الضيف عاجز عن فهم الفرق. كان عليه أن يتبين ما يفهمه الضيف من العناية الوقائية والحفاظ على الأشياء وإصلاحها. بدلًا من ذلك، يتعامل مع سؤال في الترجمة كما لو أنه حسم مسألة تتعلق بالتفكير.

لنأخذ كلمة defenestration الإنجليزية، التي تدل على رمي شخص من نافذة. ترجمتها إلى الماندرين هي 外窗出抛……把، ومعناها الحرفي «ارمِ… خارج النافذة». فالعبارة تصف الفعل باستعمال عدة كلمات. وهناك تعابير من هذا النوع موثقة أيضًا في العربية والهندية، وفي التاغالوغية لترجمة الفعل الإنجليزي defenestrate. يستطيع المرء فهم الفعل ووصفه، بل وارتكابه، من دون أن تكون له كلمة مستقلة مخصصة له. فإذا كان المتحدثون بهذه اللغات يستطيعون فهم رمي شخص من النافذة من خلال عبارة، فلماذا يحتاج المتحدثون باللغات الأفريقية إلى كلمة واحدة كي يفهموا الصيانة؟

الخطأ الثالث: التعميم المتسرع

حتى لو أثبت زانو أن لغة بعينها تفتقر إلى الكلمة والمفهوم معًا، فسيظل مطالبًا بتبرير تعميم استنتاجه على قارة كاملة. ضيوفه لا يمكن أن يمثلوا كل اللغات والمجتمعات والمهن والتقاليد الأفريقية. هذا تعميم متسرع: استنتاج يتجاوز نطاقه ما تسمح به الأدلة المقدمة لتأييده. طرح سؤال على عدد قليل من الناس لا يحوّل إجاباتهم إلى نتيجة تخص أفريقيا كلها.

الخطأ الرابع: السببية الزائفة

هناك أيضًا استنتاج سببي لا يقوم على دليل. فحتى لو ثبت غياب الكلمة وسوء الصيانة معًا، فإن تزامنهما لا يثبت أن أحدهما يسبب الآخر. هل تؤثر المفردات في الممارسة؟ أم تؤثر الممارسة في المفردات؟ أم إن كليهما يعكس ظروفًا أخرى؟ يحتاج زانو إلى أدلة تميّز بين هذه الاحتمالات. سؤاله لا يقدّم شيئًا منها، ومع ذلك تُحمّل الإجابة مسؤولية تفسير مسألة التنمية.

معرفة معنى الصيانة، وتقدير أهميتها، والمواظبة على تنفيذها أمور ثلاثة مختلفة. قد يفهم مجتمع ما العناية الوقائية، لكنه يفتقر إلى المال أو المعدات أو الكوادر المدرّبة أو الترتيبات المؤسسية اللازمة لممارستها بانتظام وكفاءة. وحتى الإهمال الواسع لا يثبت أن المفهوم مجهول. كان على زانو أن يميّز بين خلل في الفهم وخلل في التنفيذ. وسؤاله عن المفردات لا يتيح هذا التمييز.

الخطأ الخامس: النتيجة التي لا تلزم عن المقدمات

حتى لو صحت كل الادعاءات السابقة، فلن تترتب عليها النتيجة القائلة إن أفريقيا لا تستطيع أن تتطور. النقص الحالي لا يثبت عجزًا دائمًا. فالناس يستطيعون اكتساب المعرفة، وتغيير ممارساتهم، وإنشاء مؤسسات تحافظ على استمرارية تلك التغييرات. واللغات قادرة على تطوير المفردات اللازمة لوصفها. القفز من «هذا المفهوم غير موجود» إلى «هذه المجتمعات لا تستطيع أن تتطور» هو non sequitur، أي «لا يلزم من ذلك» باللاتينية. ولكي يبرر زانو هذه النتيجة، عليه أن يثبت لماذا لا يمكن أبدًا تجاوز النقص الذي يفترضه. سؤاله عن كلمة لا يثبت شيئًا من هذا القبيل.

يقدّم إحياء العبرية بوصفها لغة محكية مثالًا على قدرة اللغة على توسيع مفرداتها استجابة لحاجات جديدة. بدأت هذه العملية قبل قيام إسرائيل بعقود. فقد ظلت العبرية حاضرة في الاستعمال الديني والأدبي والعلمي، لكن اعتمادها في الحياة اليومية احتاج إلى مفردات تصف الأنشطة المعاصرة. أعاد المعلمون واللجان اللغوية استعمال كلمات قديمة، ومنحوا بعض الكلمات معاني جديدة، وصاغوا مصطلحات، واقترضوا من لغات أخرى. ووضعوا مفردات للرياضيات والبناء والنجارة وغيرها من المجالات. كان نقص المفردات عملًا ينبغي إنجازه. فلماذا يُفترض أن تثبت فجوة مزعومة في لغة أفريقية أن المتحدثين بها لن يستطيعوا أبدًا فعل شيء مماثل؟

خاتمة

هل لا يلاحظ فرانك هذه الأخطاء، أم يعيها ويواصل مع ذلك تضليل جمهوره عمدًا؟ لا أستطيع الجزم.

ما الذي ينبغي أن تتعلمه من هذا كله؟ أن المتحدث الواثق يستطيع إضفاء مظهر التماسك على استدلال مختل. سلطته الظاهرة توفّر الإيثوس (ethos)؛ والقلق بشأن ماضي أفريقيا وعدم اليقين بشأن مستقبلها يوفّران الباثوس (pathos)؛ أما تتابع الاستنتاجات فيضفي مظهر اللوغوس (logos).

اختصارات مشابهة تحوّل انخفاض نسبة النساء في السجون إلى دليل على أنهن أقل عنفًا أو أكثر طيبة، متجاهلة ما قد تسببه النساء من أذى بإذلال شخص، أو نشر نميمة خبيثة عنه، أو توجيه اتهامات كاذبة عمدًا، أو إقصائه اجتماعيًا. وتحول العنف في حي يسكنه السود إلى زعم أن السود لديهم معدل ذكاء (IQ) منخفض، والنجاح الرياضي إلى زعم أن جيناتهم لا تؤهلهم إلا للعمل البدني، أو حضور الآسيويين في الرياضيات والهندسة إلى دليل على تفوق عرقي فطري. في كل حالة، يتجاوز الاستنتاج ما تثبته الملاحظة.

التفسيرات المعقدة تتطلب جهدًا. وحين يأتي شخص فيجعل كل شيء أخيرًا «مفهومًا»، قد يتحول الارتياح إلى سبب للكف عن السؤال وتلقّي تفسيره كحقيقة لا تقبل النقاش. وما إن تبدو الحكاية متماسكة وتؤكد ما كنت تشك فيه أصلًا، حتى يسهل أن تغفل عن ضآلة ما أُثبت بالفعل.

المرجع

(Eliakim M. Kambale. (2026-11-18). كيف يخدع فرانك زانو نفسه وجمهوره حين يتحدث عن أفريقيا. Freeforms, FF-0002, الإصدار 1 /ar). https://contributions-ledger.org/freeforms/ff-0002/v1/ar)